تغاير الدلالة الزمنية بين الأفعال في القرآن الكريم

Contrast of Temporal Meaning among verbs in Holy Quran

أ.م.د/ حسين عبدالله صالح الموساي[1]
Dr.Hussein Abdullah Saleh Al-Musai

https://doi.org/10.54582/TSJ.2.2.31

(1) أستاذ النحو والصرف المشارك بقسم اللغة العربية بكلية التربية والعلوم ـ جامعة إقليم سبأ.
عنوان المراسلة : husseinalmusai2021@gmail.com

ملخص البحث:

يدور هذا البحث حول التغاير بين الدلالتين: الزمنية والنحوية للفعل في القرآن الكريم، ومعرفة مدى تفريغ الصيغ الفعلية من زمنها الأصلي المحدد في قانون النحاة إلى دلالتها على زمن غيره، وأظهر البحث أن تخصيص الفعل لأي زمن يتوقف على القرائن التي تصاحبه في سياق وروده أو بخلوه منها.

واتضح من خلال البحث أن الأفعال في القرآن الكريم كثيرًا ما تفرغ عن زمنها النحوي الذي حده النحاة، وأنها لا تكتسب دلالتها الزمنية من خلال بنيتها الصرفية والنحوية فحسب، وإنما من خلال المقام(السياق) الواردة فيه، بمساعدة القرائن اللفظية والسياقية، وكان مسلك القرآن مع هذا الأسلوب قد اتخذ مناحي عدة، فتارة يُعبّر بالماضي مريدًا به المستقبل، وتارة يُعبّر بالمستقبل مريدًا به الماضي، وفي مواضع استغرقت الأفعال الزمن كله بصيغ فعلية ممتدة تحمل دلالة الاستمرار والاستغراق الزمني، لاسيما أثناء عرض قضية الإيمان، وكان لكل منحى دلالة وغاية. وقد عالج البحث هذه القضية من خلال استعمال القرآن لأفعال ذات دلالات زمنية مغايرة لدلالاتها الأصلية، وأوضح الغايات الدقيقة منها في سياقات ورودها.

كلمات مفتاحية: التغاير، الدلالة الزمنية، الدلالة النحوية، القرآن الكريم.

Abstract

This research revolves around the variation between the two meanings: temporal and grammatical of the verb in the Holy Quran as well as identifying the extent to which the actual formulas are discharged from their original time, specified in the rule of grammarians, to their meanings of the time of others. The research showed that the allocation of the verb to any time depends on the indices that accompany it in its context or its absence from it.

It became clear through the research that the verbs in the Qur›an are often discharged from their grammatical time specified by grammarians. It does not acquire its temporal significance only through its morphological structure, but through the context in which they appear, with the help of verbal and contextual clues. The Qur›an has addressed this issue through several directions; sometimes it uses the past to mean future and other times the opposite. In other contexts, the time was occupied by the formulas of the verbs, and each direction had a meaning and purpose. The research has dealt with this issue through the use of the Qur›an for verbs that have different temporal meanings than their original meanings, and also through clarifying their precise objectives in the contexts in which they appear.

Keywords:Contrast,Temporal meaning,Grammatical meaning,Holy Quran.

أسئلة البحث:

يجيب هذا البحث عن الأسئلة الآتية:

1) هل التعبير بالفعل للدلالة على غير زمنه النحوي من أساليب العرب؟
2) أي القرائن أدق لتحديد دلالة الفعل الزمنية: اللفظية أم السياقية؟
3) هل ثمة أفعال في القرآن تحمل دلالة الاستغراق الزمني؟
4) ما الدلالات التي تحملها المغايرة الزمنية للأفعال في القرآن الكريم؟
5) هل التغاير بين الفعل الماضي والمضارع للتوسع والمبالغة؟

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى:

1) تتبع أثر التغاير الزمني للأفعال.
2) تحديد أدق القرائن على الدلالة الزمنية للفعل.
3) بيان الأفعال التي تحمل دلالة الاستغراق الزمني.
4) استنباط أسباب ودلالات التغاير الزمني للأفعال.

حدود البحث:

يختص هذا البحث بدراسة ظاهرة التغاير الزمني للأفعال في القرآن الكريم.

عينة البحث:

تتمثل باختيار شواهد متعددة من القرآن الكريم بطريقة غير قصدية.

منهج البحث:

وصفي تحليلي، تتبعي.

تقسيم البحث:

سيتم تناول البحث في ثلاثة محاور بعد التمهيد، هي:

المحور الأول: التعبير بصيغة الماضي عن المستقبل، وينقسم إلى:

أولاً: مجيء الماضي لغايات ومقاصد، هي: (قرب وقوع الشيء، أوتأكيد وقوعه، أوإقراره).

ثانياً: مجيء الماضي في سياق (البشارات، التهديد والتحذير، مشاهد يوم القيامة).

المحور الثاني: التعبير بصيغة المضارع عن الزمن الماضي.

أولا: استحضار مشهد الحدث.

ثانيًا: الدلالة على المضي والتجدد.

المحور الثالث: استغراق الفعل للزمن.

أولًا: الأفعال الدالة على تنزيه الله والاتصال به.

ثانيًا: الأفعال الدالة على استدامة المخالفة.

ثالثًا: الأفعال الدالة على دفع اللبس.

تمهيد:

المشهور أن التعبير عن أحداث الزمن الغابر يكون بما اصطلح عليه – نحويًا – بالفعل الماضي، والتعبير عن الزمن المستقبل يكون بفعل الأمر، أو بالفعل المضارع مقترنا بدلالة لفظية كالسين أو سوف، أو دلالة حالية ، وكذا في التعبير عن الزمن الحاضر بالفعل المضارع بقرينة تُعَيّنه عليه؛ غير أنه توجد في السياقات القرآنية نصوص استعمل فيها الفعل الماضي للدلالة على الزمن المستقبل، والتعبير بصيغة المضارع عن الماضي؛ مما يظهر أن تعيين دلالة الفعل الزمنية تحدد من خلال القرائن والمقام المصاحب لوروده في سياق الجملة، أو بخلوه منها، وليس من خلال البنية الصرفية والتركيب النحوي اللذين لايحددان إلا جانباً من معناه الزمني. وفي ذلك يقول سيبويه: «وقد تقع (نَفْعَلُ) في موضع (فَعَلْنَا) في بعض المواضع»[1]، وقال الفراء: «ولا بأس أن ترد (فَعَل) على (يفْعَلُ)، وأن ترد (يفْعَلُ) عَلَى (فَعَل)[2]»، وقال ابن جني: «كان حكم الأفعال أن تأتي لها بلفظ واحد؛ لأنها لمعنى واحد؛ غير أنه لما كان الغرض في صناعتها أن تفيد أزمنتها خولف بين مثُلها؛ ليكون ذلك دليلا على المراد فيها»[3]، ويقرر السامرائي ذلك؛ فيقول: «الفعل العربي لا يفصح عن الزمان بصيَغِهِ، وإنما يتحصل الزمان من بناء الجملة التي قد تشتمل على زيادات تُعِيْنُ الفعل على تقرير الزمان في حدود واضحة»[4].

فقد تنبه النحاة إلى أن خروج الفعل عن أصل الزمن الذي وضعوا له تقعيدًا غير قليل، وأنه يستعمل في كثير من سياقاته للدلالة على زمن مغاير لما تدل عليه صيغةُ في أصل وضعها، وعدوا ذلك أحد أبواب التوسع في اللغة، يقوم على وضع صيغة موضع أخرى عند أمن اللبس، قال ابن الشجري: «ووجه استجازتهم هذا الإبدال مع تضادّ الأفعال: أنّ الأفعال جنس واحد؛ وإنما خولف بين صيغها، لتدلّ كلّ صيغة على زمان غير الذي تدلّ عليه الأخرى، وإذا تضمّن الكلام معنى يزيح الإلباس، جاز وضع بعضها في موضع بعض توسّعاً»[5]، وتابع الزركشي سابقيه، فقال: «وَالْفَائِدَةُ فِي الْفِعْلِ الْمَاضِي إِذَا أُخْبِرَ بِهِ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي لَمْ يُوجَدْ أَنَّهُ أَبْلَغُ وَأَعْظَمُ مَوْقِعًا؛ لِتَنْزِيلِهِ مَنْزِلَةَ الْوَاقِعِ، وَالْفَائِدَةُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِذَا أُخْبِرَ بِهِ عَنِ الْمَاضِي؛ لِتَتَبَيَّنَ هَيْئَةُ الْفِعْلِ بِاسْتِحْضَارِ صُورَتِهِ؛ لِيَكُونَ السَّامِعُ كَأَنَّهُ شَاهِد»[6].

وقد افتتح ابن قتيبة كتابه (تأويل مشكل القرآن) (باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه) بقوله: «وإنما يعرف

(1) الكتاب، لسيبويه ، 24/3.
(2) معاني القرآن، للفراء 221/2.
(3) ابن جني، الخصائص، لابن جني، 334/3.
(4) الفعل: زمانه وأبنيته، السامرائي فاضل، ص24.
(5) الأمالي، لابن الشجري، 68/1.
(6) الفعل: زمانه وأبنيته، السامرائي فاضل، ص24.

https://doi.org/10.54582/TSJ.2.2.31

فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصَّ اللهُ به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمّة أوتيت من العارضة، والبيان، واتساع المجال، ما أوتيته العرب. وقال: ومنه أن يأتي الفعل على بنية الماضي وهو دائم، أو مستقبل، كقوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[آل عمران: 110]، أي أنتم خير أمّة. وقوله: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾[المائدة: 116]، أي: وإذ يقول الله يوم القيامة، يدلك على ذلك قوله سبحانه: ﴿**هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ**﴾[المائدة: 119]»[7].

وحاصل ما ذكره ابن قتيبة في هذا الباب هو: أن التعبير بالماضي عن المستقبل، وبالمستقبل عن الماضي، إنما هو مذهب من مذاهب العرب في كلامها، وتفنن في أساليب خطابها، وإيقاع أحدهما موقع الآخر؛ لكنه لا يخلو من نكتة بلاغية، أو لفتة بيانية، كدلالة المضارع على التجدد، والماضي على التحقق.

والقرآن نزل بلسان العرب وعلى مذاهبها في الكلام، وجرى على هذا الأسلوب في إبلاغ رسالته للناس أجمعين. وقد بيَّن المفسرون حقيقة هذا الأسلوب؛ فوصفه أبو حيان بأنه نوع «من التفنن في الكلام، والتصرف في البلاغة»[8]. وذكر الآلوسي أن «الأفعال المستقبلة التي علم الله تعالى وقوعها كالماضية في التحقق؛ ولذا عبَّر عن المستقبل بالماضي في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز»[9].

وقد اتخذ القرآن الكريم مع هذا الأسلوب منحيين، فتارة يُعبِّر بالماضي مريدًا به المستقبل، وأخرى يُعبِّر بالمستقبل مريدًا به الماضي، ولكل منحى دلالة وغاية سيوضحها البحث في مواضعها لاحقًا.

وبهذا يظهر أن علاقة الفعل بالزمان أوسع من القدر الذي حصره علماء العربية في تقسيمهم إياه إلى الماضي والحال والاستقبال؛ فإنّ مسألةَ تحديد الزمن وفقاً لقواعد النحاة تبدو غير متسقة مع كل الدلالات التي تحملها الأفعال سيما في القرآن الكريم؛ لذلك قد يحمل فعلٌ دلالةً زمنية غيرَ الدلالة الزمنية التي حددها النحاة، وقد أشار النحاة إلى ذلك، بل بيَّنوه .

والتعبير بالفعل للدلالة على غير زمنه الذي حدده النحاة مثار اهتمام لدى الباحثين، خصوصاً فيما يتعلق بالغيبيات؛ لصدور ذلك عن الله. وهذا البحث سيقف مع هذه القضية في القرآن الكريم، من خلال تتبعه لطائفة من الأفعال في آيات من القرآن العظيم، ثم تحليلها ليبرز من خلالها مستوى التغاير أو التطابق في دلالاتها النحوية مع الدلالة الزمنية، ومن ثم تتضح معانيها الدقيقة في سياقاتها المتعددة.

(7) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص، 17 180.
(8) مفاتيح الغيب، 17/9.
(9) روح المعاني، الآلوسي 98/9.

المحور الأول
التعبير بالفعل الماضي عن المستقبل

عبر القرآن الكريم بصيغة الفعل الماضي عن الزمن المستقبل في مواضع عدة؛ لأغراض بلاغية، منها: تأكيد تحقق الوقوع وقربه، والتعبير عن سرعة الحدث، والتحذير والتخويف. قال ابن الأثير عن فائدة هذا: «الفعل الماضي إذا أُخْبِرَ به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد، كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووُجِد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يُستعظم وجودها»[10].

وقد لحظ الباحث أن هذه المغايرة بين الدلالتين الزمنية والنحوية للفعل تكثر في مقام البشارة، ومشاهد وأهوال يوم القيامة.

أولاً: غايات مجيء الماضي للدلالة على المستقبل:

لمجيء الفعل الماضي للدلالة على المستقبل غايات، منها:

أ- قرب وقوع التحقق

ثمة استعمالات قرآنية للفعل الماضي بمعنى المستقبل تدل على قرب تحقق وقوع الحدث، كما في قوله تعالى: ﴿**أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾(النحل:1)، قال ابن قتيبة: «يريد يوم القيامة. أي سيأتي قريباً، فلا تستعجلوه»[11]، وكل ما هو آت قريب.

فقد صُدِّرَتِ السُّورَةُ بِالْوَعِيدِ الْمصوغِ فِي صُورَةِ الْخَبَرِ بِأَنْ قَدْ حَلَّ ذَلِكَ الْمُتَوَعَّدُ بِهِ. فَجِيءَ بِالْمَاضِي الْمُرَادِ بِهِ الْمُسْتَقْبَلِ بِقَرِينَةِ تَفْرِيعِ (**فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ**)؛ لِأَنَّ النَّهْيَ عَنِ اسْتِعْجَالِ حُلُولِ ذَلِكَ الْيَوْمِ يَقْتَضِي أَنَّهُ لَمَّا يَحُلَّ بَعْدُ[12].

وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى**﴾(الأنعام:94)، تعبير بالماضي عن المستقبل القريب، مثل قول مقيم الصلاة: قد قامت الصلاة، فهي لم تقم بعد، ولكنها قريبة القيام. والآية هنا تضمنت خطاباً تنبيهيًا للمعرضين عن ذكر الله، يلفت انتباههم بأن مجيئهم إلى الله، ووقوفهم بين يديه أمر قريب غير بعيد.

ففي الشواهد السابقة تكررت الإشارة في سياقات الاستعمال للأفعال، وقد نص طائفة من العلماء

(**10**) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير 15/2.
(**11**) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، ص، 180.
(**12**) التحرير والتنوير، ابن عاشور96/14.

على أن الغاية من استعمال الماضي بمعنى المستقبل هي: الجزم بتأكيد وقوع الحدث.

ب ـ تأكيد تحقق الوقوع

القارئ لكتب التفسير كثيراً ما يقف على عبارات للمفسرين من مثل قولهم: «التعبير بالماضي في قوله ... تنبيهاً على تحقيق وقوعه»، وقولهم: «ومجيء الفعل بصيغة الماضي؛ للتنبيه على تحقيق وقوعه»، وقولهم: «وجيء به بصيغة الماضي لشبهه بالماضي في تحقق الوقوع»[13]. ونحو هذا من العبارات الدالة على أن المقصد من هذا الأسلوب أنّما سيقع في المستقبل واقع لا محالة، أو كأنه قد وقع؛ خلافا لما اشتهر أن الفعل الماضي يدل على الزمن الماضي.

ففي قوله تعالى:﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا**﴾(الأعراف:43)، يلحظ أن الفعل (نزع) ورد بصيغة الماضي لكن دلالته مستقبلية؛ لأن التعبير بالنزع، وما يوحي به من شدة وقوة الحدث، وهو وصف تطهير صدور المؤمنين من الغل؛ لإفادة تأكيد تحقق استئصال الغل من صدورهم، وتنقيتها في المستقبل.

وفي قوله عزَّ وجل:﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾(الملك:27)، فالفعل (رأوه زلفة)، ورد بصيغة الماضي، وهو يدل على المستقبل؛ ليؤكد تحقق وقوع ما يسوؤهم؛ فيظهر السوء على وجوههم نتيجة المساءة النفسية الأليمة التي ستحل بهم مستقبلاً، وما فيها من كرب وشدة وذلة وكآبة، بدلالة الفعل (سيئت)، فيقال لهم توبيخًا: هذا الذي كنتم تطلبون تعجيله في الحياة الدنيا.

فيصحب ذلك من هلع وارتباك وشدة موقف جراء المفاجأة الصادمة والمرعبة للكافرين.

ومن ذلك أيضاً: قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ**﴾ (النمل، 87). قال أبو السعود: «وإيراد صيغة الماضي مع كونِ المعطوفِ عليه – أعني (ينفخُ) – مضارعاً؛ للدّلالةِ على تحققِ وقوعِه»[14]؛ فالفزع محقق الوقوع بعد النفخ مباشرة، بدلالة الفاء التي من معانيها التعقيب المباشر، واللافت للنظر عطف الماضي (ففزع) على المضارع (ينفخ)، خلافا للمشهور من قواعد النحاة ومعاييرهم .

وقوله تعالى:﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ**﴾(البقرة:166)، جاء بصيغتي الماضي للفعلين (تبرأ، وَرَأَوُا)؛ للتنبيه على تحقيق وقوع التبرؤ من

(13) ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية،266/1، إرشاد العقل السليم ،لأبي السعود 41/5، فتح القدير، الشوكاني 108/2. التحرير والتنوير في مواضع كثيرة.
(14) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود 303/6.

نتائج العصيان والمخالفات التي يتم المحاسبة عليها، والدلالة على ذلك، قوله سبحانه في الآية: ﴿**كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ**﴾(البقرة:167)، فـ(يريهم) مستقبل؛ إذ ليست الرؤية المذكورة بحاصلة في الحال، فكأن التعبير أريد به: (لما يرون العذاب). وَجِيءَ بِالْفِعْلِ بَعْدَ (إِذْ) هُنَا مَاضِيًا مَعَ أَنَّهُ مُسْتَقْبَلٌ فِي الْمَعْنَى؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَحْصُلُ فِي الْآخِرَةِ تَنْبِيهًا عَلَى تَحَقُّقِ وُقُوعِهِ.

ثالثاً: تحقق الإقرار

في قوله تعالى:﴿ **إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ**﴾(فصلت:47،48)، جاءت صيغة الماضي (آذناك) بدلاً من صيغة المضارع (نؤذنك)؛ ليدل على الإخبار والإعلام؛ وذلك لبيان تحقق الإقرار، حيث إن الله ينادي المشركين يوم القيامة إظهارًا لكذبهم وتوبيخًا لهم، لعجزهم عن الإجابة في موقفٍ لا يجدون فيه من يشهد لهم أن مع الله جل جلاله شريكاً، ومما دعا إلى ذلك التعبير سوء حالهم وانقطاع الحيل والتدابير، فما أمامهم إلا رجاؤهم وطمعهم في عفو الله ولطفه أن يخلصهم من أهوال عذاب يوم القيامة التي يرونها، لكن ذلك لا يفيدهم؛ لأن الأمر قد قضي، فما أمامهم إلا أن يحاسبوا بما قدموا في الحياة الدنيا؛ لقول الله تعالى:﴿وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48)﴾(فصلت:48)؛ والتعبير بـ(ظنوا) ورد بصيغة الماضي الذي لم يحدث بعد، وهذا إخبار بما سيحدث يوم القيامة من تيقن وتصديق بأنه لا نجاة لهم ولا مفر من العقاب يوم القيامة، بدلالة السياق والقرائن المحققة لوقوع الهول العظيم، وفي الآيتين محل البحث كانت الدلالة على معرفة عظم المحَذَّر منه سياقية، إذ إن السياق القرآني أفاد ذلك بما أورده من أساليب ومعان تدلّ عليه.

كما أن في الآية الكريمة (ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك...) التفاتة دقيقة، فقد جاء البناء الفعلي فيه بتصدر الفعل المضارع، ثم الماضي، وهذا مغاير للمألوف؛ إذ لو جيء بالماضي ثم المضارع لكان أقرب، وهذه المغايرة تحمل كثيرًا من الدلالات، لعل منها: إعلان عجزهم عن أي تدبير، وظهور ضعفهم حتى أصبح ذلك بارزاً لا يخفى، ومنبئاً عن الجواب، وكأن لسان حالهم يقول: الجواب ظاهرٌ علينا، بارزٌ على حالنا. ولو صح هذا الاحتمال لكان السؤال السابق جيء به لا لقصد الجواب، وإنما سخريةً وتبكيتاً لهم وتحقيراً.

ثانياً : استعمال الماضي بمعنى المستقبل

أ– التحذير والتخويف

يوحي التحذير والتخويف بدلالات الشدة والقساوة التي بدورها تدل على قوة وعظم المحَذّر منه؛

لاسيما أنَّ القرآن الكريم يعادل بين الذنب والجزاء عند الأخذ به.

ومن دلالات التحذير والتخويف التي يحملها مجيء الماضي بمعنى المستقبل في النص القرآني: قوله تعالى: ﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ**﴾ (ق:19ـ 24)، الأفعال (نفخ، جاءت، فكشفنا، وقال،وألقى) جاءت بصيغ ماضية وإن لم تحدث بعد؛ لإفادة التحذير والتخويف مما يحصل للمرء في ذلك اليوم؛ فزمنها هو زمن أحداث يوم القيامة، والقياس النحوي أن ترد بصيغ المضارع (ينفخ، وتجيء، ونكشف، ويقول)، لكن ورودها بصيغ الماضي أبلغ وأقوى في التحذير والتخويف.

وفي قوله عزَّ وجل:﴿ **وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (48) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ (الكهف:49).

حشدت الآيات مشاهد يوم القيامة بطريقة تحذيرية تخويفية تحمل دلالات التهديد والوعيد، وذلك من خلال صيغ الأفعال الماضية (حشرناهم، عرضوا، وضع الكتب، وجدوا، فدعوهم، وجعلنا، ورأى، فظنوا)، وجاء الفعل بصيغة الماضي في (وحشرناهم)، بعد المستقبل (نُسيّر) و(ترى)؛ للدلالة على أن حَشْرهم يحدث قبل (التسيير) و(البروز)؛ مبالغة في التخويف والتحذير؛ رداً على المنكرين له. قال الزمخشري: «فإن قلت لم جيء بـ(حشرناهم) ماضياً بعد (نسير) و(ترى)؟ قلت: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز، ليعاينوا تلك الأهوال العظائم، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك»[15].

ومما يلحظ في الآيات أن الفعل الماضي (حشرناهم) عطف على الفعل المضارع (ترى) ليشتركا في مطلق الاستقبال؛ لأن الواو تفيد المشاركة بين الماضي والمضارع للزمن المستقبل، إلا أنهما مختلفان من حيث الصيغة؛ إذ الحشر لم يقع بعد، بينما الفعل (ترى) الذي عطف عليه بصيغة المضارع؛ ليجعل السامع كأنه يشاهدهم عياناً. وبما أن الواقع ليس زمن الحشر، لزم أن تكون دلالته في المستقبل؛ «فالجمل المتعاطفة يجوز فيها التوافق والتخالف في الزمان، فإذا كان الواقع كذلك فلا خفاء فيه، وإن لم يكن فلابد للعدول من وجه»[16]. فكل تلك الأفعال صيغها صيغ الأفعال الماضية، لكنها بمعنى المستقبل، ونظائرها كثيرة، وفقاً لسياقاتها في القرآن الكريم.

(**15**) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الكشاف، 726/2.
(**16**) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، 106/6.

وقال تعالى:﴿ **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾(الحديد 13)، الفعلان (قيل، ضُرِب) وردا بصيغتي الماضي، والقياس أن يردا بصيغتي المضارع (يقال، يضرب) توافقًا لدلالتهما المستقبلية، إلا أن صيغة الماضي أقوى دلالة لما يحملانه من تحذير وتخويف وتهديد ووعيد للمنافقين بعدم استجابة طلبهم، فصار في الموقف حسم بزجرهم الشديد بصيغة الماضي المبني للمجهول (قيل)، والقائل لهم بالرجوع محذوف، فلا مجال لمراجعته والأخذ والعطاء معه، ولا اهتمام لتلبية طلبهم، وكذلك الفعل (ضُرِب) هو الآخر مبني للمجهول، يحمل الصد والرفض القاطع لتحقيق مطالبهم، وهذا يثير صورة ذهنية تحمل كثيراً من دلالات التحذير من الوقوع في المعاصي التي تكون نتيجتها العقاب الشديد المذل المهين.

ب ـ مقام البشارة

ورد استعمال القرآن الكريم لصيغة الفعل الماضي للدلالة على ما يتحقق في المستقبل في مقام البشارات للرسل عليهم السلام وللمؤمنين بصور مختلفة، منها ما يدل على قرب النصر، أو استجابة الدعوة بعذاب وهلاك المكذبين في الدنيا قبل الآخرة؛ وهذا الاستعمال جاء إفادة لمعنى التحقق بغير شك؛ لأنها من خبر الله، قال الله تعالى في سياق الحديث عن نوح عليه السلام:﴿ **مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا**﴾ (نوح:25)، فدل الفعلان في الآية (أغرقوا) و(أدخلوا) على البشارة لنوح بالنصر. قال ابن عاشور في تفسير الآية: «صِيغَةُ الْمُضِيِّ فِي قَوْلِهِ: (أُغْرِقُوا) مُسْتَعْمَلَةً فِي تَحَقُّقِ الْوَعْدِ لِنُوحٍ بِإِغْرَاقِ المعارضين له بأحد جنود الله، وهو الماء، وَولوجهم النار؛ ليذوقوا العذاب بالجندي الثاني النار، (فَأُدْخِلُوا نَارًا)»[17].

ومن البشارات: ما جاء لموسى وهارون عليهما السلام بعد الدعاء على فرعون وقومه بسلب النعمة منهم، وتعذيبهم في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى:﴿**قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾(يونس:89)، وقال تعالى:﴿**قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى**﴾(طه:36)، فصيغتا (أجيبت، أوتيت) ماضيتان، لكنهما استعملتا لدلالة تحقق الوقوع في المستقبل، وأكد كلٌ منهما بـ(قد) التحقيقية، لتقوية وإتمام البشارة التي بني عليها الأمر بالاستقامة، ولنفي أي احتمال للشك في عدم تحقق الأمر.

ومع نبي الله هود عليه السلام جاءت البشارة بتحقق وقوع العذاب المستقبلي على الكافرين من قومه، لكن بصيغة الماضي المحقق، قال تعالى حكاية عنه عليه السلام:﴿**قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ**﴾(الأعراف:71)، فصيغة (وقع) المسبوقة بـ(قد) تدل على أن وقوع الغضب عليهم لا محالة

(**17**) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 211/29.

كائن؛ لأن هودًا عليه السلام عرف من خلال ردود قومه وممارساتهم للمنكرات أن ذلك موجبٌ لإحلال العذاب بهم واستحقاقهم له، بعد أن يئس من رجوعهم، وتوبتهم وهدايتهم.

وتحمل صيغة الفعل الماضي البشارة المستقبلية بأوضح ما يكون لمحمد عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى:﴿**وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**﴾(الأحزاب:27) وقوله تعالى:﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا**﴾(الفتح:1)، قال البيضاوي: «والتعبير عنه بالماضي لتحققه»[18]، وقال أبو السعود: «والتعبيرُ عنه بصيغةِ الماضِي على سَنَنِ سائِرِ الأخبارِ الربانية للإيذان بتحققهِ لا محالةَ، تأكيداً للتبشيرِ»[19]؛ فصيغتا الماضيين (أورثكم)، و(فتحنا) في الآيتين السابقتين ماضيتان بيد أن السياق مستقبل؛ لدلالتهما على تحقق وقوع البشارة الصريحة الواضحة لمحمدﷺ بالإيراث والفتح بعد نزول السورتين؛ لأن المخبر بهما الله.

ج ـ أحداث يوم القيامة:

تفرد القرآن بخصوصية التعبير بالماضي أو كاد عن المستقبل، لاسيما في سياقات الحديث عن أحداث يوم القيامة وأهواله ومشاهده في المساقات التي تبدأ بأهل الجنة وأهل النار إلى أن يستقر كلٌ منهما، وهذا الأسلوب من أقوى أساليب التوكيد؛ كونه يصدر عن الذي لا يتطرق إلى إخباره الخلف، وقد اكتسب قوته من قوة المشاهد المعروضة من خلال أفعال قوية في جَرْسِها وصيغها.

ففي سورة الزمر قال تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73)**﴾.

لقد جاء الإخبار عن أهوال القيامة في الآيات السابقة بصيغ الماضي في هذه الأفعال التسعة عشر: (نُفخ، فصعق، نفخ فيه أخرى، أشرقت، وُضع، جيء، قضي، وفيت، سيق، جاؤوها، فتحت، قال، قالوا، حقَّت، قيل ادخلوا، سيق، جاؤوها، فتحت، قال)؛ لأن أحداثها محققة الوقوع بسوق كل فريق إلى ما يستحقه من جزاء بغير شك ولا ريب؛ مادام والمخبر بذلك هو الله جل شأنه.

(**18**) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي ، 126/5.

(**19**) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود ، 102/8.

https://doi.org/10.54582/TSJ.2.2.31

ولقد أسهمت صيغ الأفعال الماضية في تقديم تصور لما سيحدث من أهوال في أرض المحشر، من نفخ للصور إلى صعق وإماتة لكل حي، ثم الصعق مرة أخرى للإحياء للوقوف بين يدي الله للمساءلة والمجازاة بعرض الصحائف بكل ما فيها، ثم السوق إلى الجنة أو النار، لكن السوق يختلف، فسوق أهل الجنة يصحبه الرفق، ويتبعه التكريم والتسليم، وسوق أهل النار يصحبه القسوة والشدة، ويتبعه التبكيت والتحقير بدلالة الفعل (بئس) الدال على سوء العمل والعاقبة السيئة. وهذه الأفعال ساقت المشاهد بصور مخيفة مرعبة حتى كأن القارئ يشعر أنه أمام أحداث حية ماثلة بكامل مشاهدها ووقائعها يراها ويسمعها؛ لأن قوة صياغة الأفعال تقرع جرس أذن المتلقي مما يثير حواسه ويحفز ذاكرته فيتذكر، ويتصور ذهنيا صور ومشاهد تلك الأحداث، ولا يملك قارئ الآيات إلا الإقرار والتصديق بأحداث يوم القيامة بما لا يدع للشك مجالا، والتيقظ والاستعداد لذلك اليوم بالعمل الصالح واجتناب المخالفات والآثام. قال الآلوسي: «وبني الفعل للمفعول لعدم تعلق الغرض بالفاعل، بل الغرض إفادة هذا الفعل من أي فاعل كان، فكأنه قيل: ووقع النفخ في الصور فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ»[20]. ويستفاد من نص الآلوسي: أن صرف اهتمام السامع إلى الفعل فيه بالبناء للمجهول لفتة لها درجة كبيرة من الأهمية بحيث لو ذكر الفاعل لأشغل جزءاً من اهتمام المتلقي، وأن بناءه للمفعول يفيد من جانب آخر أن الأمر بيد الله وحده، مما يقود للخضوع والاستسلام لأمره جل وعلا.

وفي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿ **وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (45) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (47) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (49) وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ(50)** ﴾. الأفعال في الآيات (نادى، وجدنا، وجدتم، وعد، قالوا، أذن، نادوا، صرفت، قالوا، نادى، قالوا، أقسمتم)، جاءت بصيغة الماضي للإخبار عن المستقبل؛ فهي تتحدث عما سيحدث في الآخرة بعد الحساب والمجازاة، قال ابن عطية: «هذا إخبار من الله عز وجل عما يكون منهم، وعبَّر عن معان مستقبلة بصيغة ماضية، وهذا حسن فيما يحقق وقوعه[21]».

وهذا بخلاف أفعال وردت في سياقات متعددة في القرآن الكريم، منها: (ونوحاً إذ نادى من قبل، وزكريا إذ نادى ربه، واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه، ونادى فرعون في قومه)، كلها أفعال دلت على

(20) روح المعاني،الآلوسي، 282/12.
(21) تفسير ابن عطية ، 401/1.

المضي موافقة لصيغها، أما أفعال المناداة في سورة الأعراف التي تخبر عن المستقبل، سواء أكانت أفعال المناداة من أصحاب الجنة بعد استقرارهم فيها لأصحاب النار أو أفعال المناداة من أصحاب النار لأصحاب الجنة؛ فإنها دلت على المستقبل، وأما مناداة أصحاب الأعراف لأصحاب الجنة، فهي بمثابة التهنئة والمباركة لهم بما لاقوه من نعيم في الجنة، ونداؤهم يحمل دلالات الرجاء من الله والطمع في مرضاته أن يلحقوا بأهل الجنة، والخوف والالتجاء إلى الله أن يجيرهم مما حل بأصحاب النار، يدل على ذلك صيغة المبني لغير المعلوم (صُرِفَتْ).

وجاءت تلك الأفعال ذات الصيغ الماضية في هذه اللوحة المتكاملة المشاهد كبيرة التأثير النفسي والعقائدي التي اشتركت فيها حواس السمع والبصر، وعصفت بالذهن لترجعه إلى الوراء، ليتذكر أحداث الدنيا وأهوال اليوم الآخر ونعيم الآخرة؛ ليتعمق الإيمان ويترسخ في نفسه، باستشعار الوقوف أمام الله للجزاء والمحاسبة يوم العرض الأكبر؛ فيستعد ليوم الحشر واللقاء.

وفي سورة البقرة ورد قوله تعالى:﴿ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾(البقرة:210)، الفعل الماضي هنا (وقضي) مراد منه المستقبل، ولكنه أتى بصيغة الماضي معبرًا عن حدث ومشهد من مشاهد يوم القيامة، للدلالة على أن حسم الأمور بيد الله وحده، وأن باب التحججات والأعذار الكاذبة الواهية قد أُغلق، وأنه قد «تم أمر إهلاكهم وفرغ منه، ووضع الماضي موضع المستقبل؛ لدنوه وتيقن وقوعه»[22] .

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب قوله تعالى:﴿ **وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ**﴾(النمل:87)، فالفزع حدث من أحداث يوم القيامة المزلزلة، ولتقريب ذلك المشهد المهول عبر عنه بالماضي؛ قال ابن عاشور: «فَصِيغَةُ الْمَاضِي كِنَايَةٌ عَنِ التَّحَقُّقِ، وَقَرِينَةُ الِاسْتِقْبَالِ ظَاهِرَةٌ مِنَ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ: (يُنْفَخُ)[23]، فقوله: (ففزع) لا يمكن أن يراد به المضي؛ لمنافاته ذلك زمنيًا.

ومما يلحظ من خلال إمعان النظر في لوحتي عرض مشاهد اليوم الآخر (أعني آيات الأعراف والزمر) أن أفعال لوحة الزمر تعرض مواقف العرض والحساب والجزاء بصيغ الماضي؛ لتأكيد الحدوث، وبصور مرعبة مخيفة، مما يشد انتباه المتلقي – قارئا كان أو مستمعًا– للتيقظ والاستعداد لتلك المواقف، أما أفعال لوحة الأعراف، فتعرض حالتي أهل الجنة والنار بعد الحساب والمجازاة، مما يحفز ويرغب على الأخذ والاقتداء بأصحاب الجنة في أعمالهم التي أوجبت لهم الجنة وأبعدتهم عن النار، وينبه المعرضين والغافلين ليأخذوا الحيطة والحذر من أعمال أهل النار، التي أوردتهم الهلاك بالعذاب الأليم.

(22)تفسير البيضاوي، 134/1.
(23) التحرير والتنوير، ابن عاشور 45/20.

المحور الثاني
التعبير بصيغة المضارع عن الزمن الماضي

عبر القرآن الكريم بصيغة الفعل المضارع عن الزمن الماضي في مواضع عدة لأغراض بلاغية، منها: استحضار مشهد الحدث وصورته، أو الدلالة على المضي والتجدد، وتكرر حدوث ذلك الفعل، واستمرار وقوعه.

أولا: استحضار مشهد الحدث وتجدده:

إذا أُخبر بالمستقبل عن الماضي، تبيّنت من خلال هذا الأسلوب هيئة الفعل؛ وذلك باستحضار صورته؛ فيستحضر السامع هيئة حدوث الفعل وما يصحبها، فيكون كأنه مشاهدٌ لمجريات الحدث وقت وقوعه. قال ابن الأثير موضحاً هذا الأسلوب: «اعلم أن الفعل المستقبل، إذا أُوتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل، كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي؛ وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة، حتى كأن السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي ... وهكذا يفعل بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية، كحال تُستغرب، أو تهم المخاطب، أو غير ذلك»[24]. وقد أطلق الزمخشري على هذا الأسلوب مصطلح «حكاية الحال»[25]. و «معنى حكاية الحال: أن يقدر أن ذلك الفعل الماضي واقع في حال التكلم، كأنك تُحضِره للمخاطب وتُصوِّره له ليتعجب منه»[26]. ويقول الصبان: «ويقدر الماضي واقعا في الحال، أي في زمن التكلم؛ لاستحضار صورته العجيبة». أما ابن هشام فيقول: «نزَّل المستقبل منزلة الحاضر المشاهد»[27]. وفي هذا المساق يفسِّر النحاة وعلماء الدلالة العرب مصطلح: «حكاية الحال، وهو «حكاية المعاني الكائنة حينئذ لا الألفاظ»[28].

إذن، حكاية الحال الماضية يُعبّر بها عن الحدث الماضي بما يدل على الحاضر، وذلك استحضاراً لصورته في الذهن، كأنه مشاهد مرئيٌ للقارئ أو السامع.

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب، قوله تعالى:﴿ **وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ**﴾(فاطر:9)، فإنه جاء بالفعل (فتثير) مستقبلاً، وما قبله (أرسل)، وما بعده (فسقناه)، و (فأحيينا) ماضياً؛ حكاية للحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب، واستحضاراً لتلك

(**24**) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،ابن الأثير ، (2/ 145، 146).
(**25**) الكشاف، للزمخشري،1/ 430).
(**26**) السابق، 221/22.
(**27**) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، 201/1.
(**28**) شرح الشافية ، الرضي الاستراباذي، 418/3.

https://doi.org/10.54582/TSJ.2.2.31

الصورة الدالة على القدرة الباهرة، فتبدو أولا قطعاً، ثم تتضامّ متقلبة بين أطوار، حتى تصير ركاماً. قال الزمخشري: «فإن قلت: لِمَا جاء (فتثير) على المضارعة، دون ما قبله وما بعده؟ قلت: ليحكي الحال التي يقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية»[29]. وقال الرازي: «قال تعالى: (والله الذي أرسل) بلفظ الماضي، و(فتثير سحاباً) بصيغة المستقبل؛ وذلك لأنه لما أسند فعل الإرسال إلى الله، وما يفعل الله يكون بقوله (كن)، فلا يبقى في العدم زمان ولا جزء من الزمان، فلم يقل بلفظ المستقبل؛ لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان وكأنه فرغ من كل شيء، فهو قدر الإرسال في الأوقات المعلومة إلى المواضع المعينة، والتقدير كالإرسال، ولما أسند فعل الإثارة إلى الريح، وهو يؤلف في زمان، فقال: فتثير أي على هيئتها»[30].

ومن هذا القبيل أيضاً، قوله تعالى:﴿ **كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا**﴾(الحديد:20)، فقد عبر بالمستقبل (يهِيجُ)، و(يَكُونُ) بدلا عن الماضي، لمنحى دلالي مقصود، وهو أن يظل مشهد الاندثار مستحضرًا في الأذهان، كأنه حاضر ماثل للعِيان.

وعلى وفق هذا الأسلوب جاء قوله سبحانه:﴿ **وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ (الحج:31)، فقال أولاً: (خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ) بلفظ الماضي، ثم عطف عليه المستقبل (فَتَخْطَفُهُ)، و(تَهْوِي)، وإنما عدل في ذلك إلى المستقبل؛ استحضاراً لصورة خطف الطير إياه، وهَويّ الريح به[31]، وتأكيد استقرارها في ذهن المخاطب؛ زيادة في تبشيع عاقبة الشرك بتصوير حسي مرعب؛ ليكون رادعاً عن الوقوع في ذات المصير. وهذا لا يكون إلا لفائدة دلالية أو نكتة بلاغية يقتضيها السياق.

ونحو ما تقدم، قوله عزّ من قائل:﴿**فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾ (البقرة:87)، جاء الفعل (تَقْتُلُونَ) بصيغة المضارع عوضاً عن الماضي؛ لاستحضار الحالة الفظيعة، وكأنه مشاهد للعِيان، وهي حال قتل اليهود رسلهم؛ لأن الموقف موقف استغراب وتعجب ودهشة؛ لفظاعة فعلهم الشنيع قتل الأنبياء، فأراد استحضاره في النفوس، وتصويره في القلوب.

ونحو هذا قوله عزّ وجّل:﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً**﴾(الحج:63)، فقد عدل عن لفظ الماضي (أَصْبَحَتْ) إلى المستقبل (فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً)، ولم يقل:(فأصبحت) عطفاً على (أنزل)؛ لإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، فإنزال الماء مضى وجوده، بيد أن اخضرار الأرض باقٍ لم يمض، قال ابن الأثير: «وهذا موضع حسن ينبغي أن يُتأمل»[32].

(**29**) السابق، 610/3).
(**30**) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، الرازي ، 7/26.
(**31**) المثل السائر ، ابن الأثير،148/2.
(**32**) المثل السائر، ابن الأثير، 15/2.

ثانيًا: الدلالة على المضي والتجدد

قد يكون المستقبل المعطوف على الماضي ليس من باب إخبار بمستقبل عن ماضٍ منقطع، وإنما يراد به أن ذلك الفعل ما زال مستمر الوجود، والمحدد لذلك ليست الصيغة وحدها، وإنما القرائن المصاحبة، وسياق وروده.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:﴿ **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49)**﴾ (البقرة:49)، فواضح ما قام به فرعون من سوم بني إسرائيل سوء العذاب، وذبح الأبناء، غير أنه عبر عن ذلك بصيغتي المضارع (يسومونكم) و (يذبحون) الذي يدل على الحال؛ وذلك لقصد إحضار صورة مشهد التعذيب أمام الأعين، فكأن المتلقي للنص يشاهد آل فرعون وبأيديهم آلات التذبيح للأبناء. والمتأمل لسير طغيان الطغاة الذين على شاكلة فرعون يدرك أن تنكيلهم وظلمهم للدعاة والمصلحين مستمر ومتجدد على مر العصور وتعاقب الحكام.

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى:﴿ **فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾(البقرة: 91)، فالقتل حدث في الماضي بقرينة (من قبل)، ولكن التعبير عنه أتى بصيغة المضارع؛ استحضاراً لتلك الصورة الشنيعة من قتل أنبياء الله، فخلع على المشهد صورة الحياة والحركة حتى أصبح ماثلاً أمام أعين المتلقي للنص. قال في المغني: «يعبرون عن الماضي والآتي كما يعبرون عن الشيء الحاضر؛ قصداً لإحضاره في الذهن حتى كأنه مشاهد حال الإخبار»[33].

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾. (سورة السجدة: 16). فقال :(خَرُّوا، سَبَّحُوا)، والقياس أن يقول: (يخرون ويسبحون)؛ ليدل على تأثرهم، وسرعة استجابتهم، و....»، أُوثِرَتْ صِيغَةُ الْمُضَارِعِ فِي (إِنَّما يُؤْمِنُ) بدلاً من (آمن) لِمَا تُشْعِرُ بِهِ مِنْ أَنَّهُمْ يَتَجَدَّدُونَ فِي الْإِيمَانِ، وَيَزْدَادُونَ يَقِينًا وَقتًا فَوَقتًا»[34].

ومن أمثلة ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (58)**﴾(سورة الأحزاب)، قال الواحدي «ومعنى يؤذون الله: يخالفون أمره ويعصونه، ويصفونه بما هو منزه عنه»[35]، والأفعال: (يؤذون، يؤذون) في الآيتين سواء أكان الأذى لله أم للمؤمنين، حدثًا في الماضي بدلالة الأفعال (لعنهم، أعد، اكتسبوا، احتملوا)، غير أن الإيذاء منهم مستمر ومتكرر على مدى

(**33**) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، 905/1.
(**34**) التحرير والتنوير، ابن عاشور 21/ 227.
(**35**) الوسيط في تفسير القرآن، الواحدي، 482/2.

العصور وفي مختلف المواقف، والسياق يكشف دأب المنافقين وسجايا طباعهم في الاستمرار بالإيذاء؛ فاستحقوا وجوب اللعنة من الله؛ جزاء لما عملوه في الماضي، وما سيعملونه في المستقبل من معاصي ومخالفات؛ لأن المقصود جنس المؤذين من المنافقين؛ فالإيذاء للرسول ﷺ وللمؤمنين يستوجب أن يحتملوا البهتان والإثم العظيم من الله لاستحقاقهم ذلك.

ومن الأمثلة في هذا قول الله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ (سورة الأنفال: 1). الفعل المضارع (يسألونك) خلا من القرائن اللفظية، فدل على الحال والاستمرار، والمقصود به المضي؛ لأن حدث السؤال وقع قبل نزول السورة، أي في الماضي، فالقياس التعبير بـ (سألوك)، وإنما «جيء بالفعل بصيغة المضارع دالاً على تكرار السؤال، إما بإعادته المرة بعد الأخرى من سائلين متعددين، وإما بكثرة السائلين عن ذلك حين المحاورة في موقف واحد»[36]. وذلك بخلاف الفعلين (فأتى الله بنيانهم، وأتاهم العذاب) في الآية السادسة والعشرين من سورة النحل نفسها؛ فإن دلالة الفعلين الزمنية في الماضي، قال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (26).

ونظائر الفعل (يسألونك) كثيرة في القرآن الكريم، من ذلك:

قوله تعالى:﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ (البقرة:219).

وقوله تعالى:﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا**﴾ (الأعراف:187).

وقوله تعالى:﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ (الإسراء:85).

وقوله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا**﴾ (الكهف:83).

وقوله تعالى:﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا**﴾ (طه:105).

وقوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾ (البقرة:189).

وقوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ**﴾ (البقرة:217).

من خلال هذه الأمثلة يمكن أن يقال: إن القرآن الكريم عبر فيها بصيغة المضارع الدالة على المضي

(**36**) التحرير والتنوير، ابن عاشور، 248/9.

وتجدد الحدوث في المستقبل ليشمل ذلك كله، وأن هذه الصيغ قد يدل على أمور، منها:

- تكرر السؤال من السائلين أنفسهم قبل حدوثه، أو تعدد السائلين في الموقف نفسه الذي حدث فيه السؤال.
- وإما لأن حال السائلين كان في تساؤل متكرر حتى مجيء الجواب.
- أو أنه يتكرر السؤال من هذا النمط بهذه الصيغة حول القضايا التي تلامس واقع الناس أو واقع أكثرهم.
- أو لأن السؤال يتعلق بقضايا حية متجددة تنبعث الحاجة للسؤال عنه مستقبلاً عند غير السائلين السابقين فيما يماثل ما سئل عنه.

المحور الثالث
استغراق الفعل للزمن

ثمت أفعال لا تنحصر دلالتها الزمنية على زمن معين، بل تستغرق الماضي والحاضر والمستقبل، وذلك ظاهر في الأفعال الدالة على: تنزيه الله والاتصال به، ودفع للبس، واستدامة المخالفة. وهذا ما سيتناوله البحث في هذا المحور.

أولًا: الأفعال الدالة على تنزيه الله والاتصال به

ومن الأمثلة في هذا الباب: قول الله تعالى: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾(الحديد: 1)؛ فإن دلالة الفعل الماضي (سبح) ليست هي الدلالة المعطاة للفعل الماضي، وهي الانقطاع والانقضاء، بل بقاؤه واستغراقه للأزمنة كلها؛ فإنه لما كانت النفوس ملتبسة بأمر التسبيح على الدوام والاستمرار بأمر الله ﷻ، عبر القرآن بقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. قال ابن عاشور: «صِيغُ فِعْلِ التَّسْبِيحِ بِصِيغَةِ الْمَاضِي لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ تَنْزِيهَهُ تَعَالَى أَمْرٌ مُقَرَّرٌ، أَمَرَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ مِنْ قَبْلُ، وَأَلْهَمَهُ النَّاسَ، وَأَوْدَعَ دَلَائِلَهُ فِي أَحْوَالِ مَا لَا اخْتِيَارَ لَهُ»[37]، فدلالة (سبح) عامة، وليست خاصة بالماضي؛ لأن هذا الفعل جاء في فواتح بعض السور ماضيًا، وفي بعض منها جاء مضارعًا كما في سورتي (الجمعة والتغابن)، وفي أُخر جاء أمرًا كما في سورة (الأعلى)؛ للإشارة إلى أن تلك الأشياء خلقت ووجدت مسبحةً، وأنها تسبح في كل الأوقات. قال البيضاوي: «سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، ذكر هاهنا وفي «الحشر» و «الصف» بلفظ الماضي، وفي «الجمعة» و«التغابن» بلفظ المضارع؛ إشعاراً بأن من شأن ما أسند إليه أن يسبحه في جميع أوقاته؛ لأنه دلالة جِبِلّية لا تختلف باختلاف الحالات...»[38].

وقال الرازي: «جَاءَ فِي بَعْضِ الْفَوَاتِحِ سَبَّحَ عَلَى لَفْظِ الْمَاضِي، وَفِي بَعْضِهَا عَلَى لَفْظِ الْمُضَارِعِ، وَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ كَوْنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مُسَبِّحَةً غَيْرُ مُخْتَصٍّ بِوَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، بَلْ هِيَ كَانَتْ مُسَبِّحَةً أَبَدًا فِي الْمَاضِي، وَتَكُونُ مُسَبِّحَةً أَبَدًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ كَوْنَهَا مُسَبِّحَةً صِفَةٌ لَازِمَةٌ لِمَاهِيَّاتِهَا، فَيَسْتَحِيلُ انفكاك تِلْكَ الْمَاهِيَّاتِ عَنْ ذَلِكَ التَّسْبِيحِ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّ هَذِهِ الْمُسَبِّحِيَّةَ صِفَةٌ لَازِمَةٌ لِمَاهِيَّاتِهَا، لِأَنَّ كل ما عدا الواجب ممكن، وكل ممكن فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَى الْوَاجِبِ، وَكَوْنُ الْوَاجِبِ وَاجِبًا يَقْتَضِي تَنْزِيهَهُ عَنْ كُلِّ سُوءٍ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ وَالْأَحْكَامِ وَالْأَسْمَاءِ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ، فَظَهَرَ أَنَّ هَذِهِ الْمسبِّحِيَّةَ كَانَتْ حَاصِلَةً فِي الْمَاضِي، وَتَكُونُ حَاصِلَةً فِي الْمُسْتَقْبَلِ، والله أَعْلَمُ»[39].

(37) التحرير والتنوير، ابن عاشور ، 357/27.
(38) تفسير البيضاوي، 185/5، وينظر: إعراب القرآن وبيانه، للدرويش، 417/7.
(39) مفاتيح الغيب، الرازي، 441/29.

https://doi.org/10.54582/TSJ.2.2.31

وهناك سياقات استوجبت أن تدل صيغة الماضي على الاستمرار، وفي أصل وضعه أن يكون للمضارع، ويظهر للباحث أن هذا النمط يغلب وروده في جُمَلِ صلة الموصول، نحو قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾(البقرة:4)؛ فقد ورد الفعل في الآية الكريمة (أُنزِل) بصيغة الماضي، والمقرر عند النحاة أن يعبر عن الإخبار بصيغة المستقبل (سينزل)، لكنه جاء بصيغة الماضي، بوصف الإخبار عن أمر واقع لا محالة؛ كونه أمر الله النافذ، لأن صيغة الماضي أبلغ في الدلالة هنا. قال الزمخشري عن هذا الاستعمال : «فإن قلت: قوله: (بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ) إن عنى به القرآن بأسره والشريعة عن آخرها، فلم يكن ذلك منزلاً وقت إيمانهم، فكيف قيل (أنزل) بلفظ المضي؟ وإن أريد المقدار الذي سبق إنزاله وقت إيمانهم، فهو إيمان ببعض المنزل، واشتمال الإيمان على الجميع سالفه ومترقبه واجب. قلت: المراد المنزل كله، وإنما عبر عنه بلفظ المضي –وإن كان بعضه مترقباً– تغليباً للموجود على ما لم يوجد، كما يغلب المتكلم على المخاطب، والمخاطب على الغائب»[40].

فيلحظ من خلال نص الزمخشري أن صيغة (أُنزِل) يمكن أن تحمل على جميع دلالات القرآن، وإن كان المنزل منه في هذا المقام بعضاً منه؛ لأن المقام مقام مدح للمؤمنين، بحيث لا يكتمل الإيمان، ولا تحصل التقوى إلا بالإيمان بجميعه، الماضي في النزول منه والمرتقب؛ فالإيمان حاصل من المؤمنين بالرسالات السماوية السابقة، وبما أنزل على محمد ﷺ، كما أنه مستمر إلى يوم الدين.

ثانيًا: الأفعال الدالة على استدامة المخالفة

ومن الأمثلة في هذا الباب: قول الله تعالى:﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79)**﴾ (المائدة)، فدلالة الماضي على الاستمرار لم تأتِ من خلال الصياغة، ولكن بما دل عليه سياق الآية، ذكر أبو السعود في تفسيره أن الآية: «استئناف مفيد بعبارته لاستمرار عدم التناهي عن المنكر، ولا يمكن استمرارُه إلا باستمرار تعاطي المنكرات، وليس المراد بالتناهي أن ينْهَى كلُّ واحد منهم الآخَرَ عما يفعله من المنكر، كما هو المعنى المشهورُ لصيغة التفاعل، بل مجرد صدور النهي عن أشخاص متعددة من غير اعتبارِ أنْ يكون كلُّ واحدٍ منهم ناهياً ومنهياً معاً، كما في تراءَوْا الهلالَ. وقيل: التناهي بمعنى الانتهاء؛ يقال: تناهى عن الأمر وانتهى عنه، إذا امتنع عنه وتركه؛ فالجملة حينئذ مفسرةٌ لما قبلها من المعصية والاعتداء، ومفيدة لاستمرارهما صريحاً، وعلى الأول مفيدة لاستمرار انتفاء النهي عن المنكر، بأن لا يوجد فيما بينهم من يتولاه في وقتٍ من الأوقاتِ، ومن ضرورته استمرارُ فعل المنكر حسبما سبق»[41].

وبمقتضى الظاهر أن يعبر (عن التناهي) بصيغة المضارع؛ لأن فعل المنكرات من كفار بني إسرائيل

(**40**) الكشاف، للزمخشري، 41/1.
(**41**) إرشاد العقل السليم، أبو السعود 69/3. وينظر: التحرير والتنوير، 293/6.

يتكرر مراراً من غير أن يتناهوا عن حدوثه، وعدم تناهيهم دليل الإصرار على المنكر وتكرار حدوثه مرات ومرات، فجاءت دلالة المعنى الاستمراري مستفادة من السياق العام للآيتين.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿**مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (يوسف :40) فالفعل الماضي (أمر) دل على عموم الزمن لا انحصاره بالماضي بقرينة الفعل (ألا تعبدوا إلا إياه)، ولو كان خاصاً بالماضي لقال أمر ألا يعبدوا إلا إياه.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾(يوسف: 57). الفعل (آمنوا) صيغته ماضية، بيد أن دلالته أيضاً للحاضر والمستقبل بقرينة و(لأجر الآخرة)؛ فالأجر موعود به في الآخرة؛ كما أن السياق استوجب تلك الصيغة المنسجمة وصلة الموصول، فغير معقول أن الله جل جلاله يعد أجر الآخرة للمؤمنين السابقين الذين تنزل القرآن العظيم بين أظهرهم، وظهرت لهم المعجزات، وعلمهم رسول الله، ويهمل المؤمنين المتأخرين الذين آمنوا بالغيب، وصدقوا بالقرآن، وعملوا به، وهو العدل الذي لا يُظلم عنده أحد.

وفي قوله سبحانه:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ (الحج:25)، عُطِفَ المستقبل (وَيَصُدُّونَ) على الماضي (كَفَرُوا)؛ لأن كفرهم كان قد وجِدَ واستقر، ولم ينقض حتى يستجدوا بعده كفراً ثانياً، في حين أن صدهم عن سبيل الله متجدد مع الأيام، لم ينقض، وإنما يُستأنف في كل حين، فاكتسب الفعل (ويصدون) دلالة المضي من عطفه على الماضي، واكتسب دلالة تجدد حدوثه من صيغة المضارع، ومن واقع المحكي عنهم. قال الواحدي: «عطف المضارع على لفظ الماضي؛ لأن المراد بالمضارع أيضا الماضي»[42]، أي أنهم صدوا في الماضي، ويصدون في الحاضر، وسيتكرر منهم الصد في المستقبل. وقال الطبري: «عطف بـ (يصدون) وهو مستقبل، على (كفروا) وهو ماض؛ لأن الصدّ بمعنى الصفة لهم والدوام»[43]. وفائدة ذلك هي استحضار الصورة الذهنية للفعل.

وفي مثل هذا الأمر يمكن أن يكتسب التعبير بالمضارع معنى الحال المستمرة اللازمة لصاحبها في الماضي والحاضر والمستقبل، مثال ذلك أن: يقال فلان يحسن إلى الفقراء، ويعين الضعفاء، فإنه لا يراد به حال ولا استقبال، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه في جميع أزمنته وأوقاته، فكأنه قيل: إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله، ونظيره قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾. [الرعد: 28].

(**42**) ينظر: الوسيط في تفسير الواحدي، النيسابوري، الشافعي ، 265/3.

(**43**) جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير الطبري ، 69/4، (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، لأبي البركات النسفي ، 434/2.

ثالثًا: الأفعال الدالة على دفع اللبس

ومن شواهد ذلك: قوله تعالى:﴿ **وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا**﴾ (النساء:28). فلا يصح حمل الفعل (خلق) على انقضاء حدثه؛ إذ لو كان المراد بالحدث في الزمن الماضي لكان المعنى موقوفاً على الإنسان المخلوق قبل نزول الآية، وهذا غير مقصود قطعاً، بل المعنى أن الإنسان من شأن خلقه أن يكون ضعيفاً: مَنْ خُلِقَ في الماضي، ومَنْ يُخلق الآن، ومن يخلق مستقبلاً. فاستوجب السياق التعبير بالماضي بدلًا عن المضارع، وإن كان نظام التركيب يقتضي خلاف ذلك، وربما كان اختيار صيغة الماضي في التعبير للاحتراز عما يفهم من المضارع؛ إذ لو كان التعبير بصيغة المضارع التي تفيد الاستقبال لما ناسب قدرة الله ـ جلَّ ذكره النافذة في كل وقتٍ و حين.

https://doi.org/10.54582/TSJ.2.2.31

الخاتمة:

وأخيراً:

يدور هذا البحث حول التغاير بين الدلالتين: الزمنية والنحوية للأفعال في القرآن الكريم، التي جاءت في مواضع وسياقات متعددة في القرآن الكريم لأغراض دلالية وبلاغية، ومعرفة مدى تفريغ الصيغ الفعلية من زمنها إلى دلالات غير الدلالة المحددة في قواعد النحاة، وقد اتخذ القرآن لهذا الأسلوب مسالك عدة، بيد أن لكل مسلك دلالة خاصة وغاية.

فتارة يُعبّر بالفعل الماضي مريدًا به المستقبل، والذي تكون دلالته عامة ومتعددة؛ فتدل على الماضي (مطلقاً وقريباً وبعيداً)، وأحيانا على الحاضر، وفي غير ذلك على المستقبل، وفي مواضع يدل على عموم الزمن. وتارة يُعبّر بالمستقبل مريدًا به الماضي، وفي مواضع استغرقت صيغ الأفعال الزمن بصيغ فعلية ممتدة، تحمل دلالة الاستمرار والاستغراق الزمني، سيما أثناء عرض قضية الإيمان.

الخاتمة:

توصل الباحث إلى النتائج الآتية:

– الأفعال في القرآن الكريم كثيراً ما تفرغ من زمنها النحوي الذي حدده النحاة؛ فيستعمل الفعل في كثير من سياقاته للدلالة على زمن مغاير لما تدل عليه صيغةُ في أصل وضعها، ويعد ذلك توسعًا في اللغة.

– الأفعال لا تكتسب دلالتها الزمنية من خلال بنيتها الصرفية فحسب، وإنما من السياق والقرائن المصاحبة، وأن دلالة الفعل تخضع لما ترجحه وتقويه القرائن المعنوية إذا تعارضت مع القرائن اللفظية.

– المعنى يفرض الصيغة الزمنية للفعل بوصفه سيد الموقف، واللفظ لا يخرج عن كونه خادماً للمعنى، وموصلاً إلى غاية من غايات اللغة، كوضوح المعنى، وأمن اللبس بتأثير العلاقات السياقية بين المعاني الوظيفية الجزئية لمكونات الجملة أو الجمل المتعددة.

– الغاية من استعمال صيغة الفعل الماضي بمعنى المستقبل: الدلالة على تحقق وقوع الحدث أو لقرب الوقوع أو للتأكيد. وأبرز مواطن ذلك أحداث يوم القيامة وأهواله؛ لتقريبها ذهنيًا من المتلقي؛ بشارة للمؤمنين، وتخويفًا وتحذيرًا للكافرين والمعرضين.

– الغاية من التعبير بالفعل المستقبل عن الماضي تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته، وحدثه وتجسيمه وتوضيح مشاهده وآثاره؛ لتقريب ذلك الحدث؛ فيكون السامع كأنه يشاهده ماثلًا أمامه.

– غالباً ما يكون وراء التغايير الزمني للفعل، ماضياً أو مستقبلاً أو مستغرقاً للزمن، معنى بلاغي يظهر من خلال سياق وروده.

أخيرًا: التوصية : يوصي البحث بالقيام بعمل بحثي استقصائي لمغايرة دلالات الأفعال لصيغها الزمنية، ومقارنتها مع معايير وقواعد النحاة؛ لمعرفة النسبة بين موافقتها للقواعد ومغايرتها لها في القرآن الكريم، وكلام العرب.

قائمة المراجع

1. ابن الأثير، (ت:637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: الحوفي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة.
2. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: 1393هـ)، (1984هـ) التحرير والتنوير، «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر – تونس.
3. ابن عطية، محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: 542هـ)، (ط1 – 1422هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت.
4. ابن قتيبة الدينوري، محمد بن عبدالله بن مسلم (ت: 276هـ)، تأويل مشكل القرآن تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
5. ابن هشام الأنصاري (ت: 761هـ)، (ط6، 1985م) تح: د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر – دمشق.
6. أبو البركات النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، (ت: 710هـ)، (ط1، 1419هـ – 1998م)، تح: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت.
7. أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى،(ت:982هـ) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (د.ت)، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
8. أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي(ت:392هـ)، (ط4، 1990)، الخصائص، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
9. أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: 745هـ)، (ط1420هـ) ، البحر المحيط، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت.
10. أبو زكريا الفراء، (ت: 207هـ)، (ط1)، معاني القرآن، تح: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر.
11. الاستراباذي ، محمد بن الحسن الرضي نجم الدين (ت: 686هـ)،(1395هـ ـ1975م)، شرح شافية ابن الحاجب، تح: محمد نور الحسن، محمد الزفزاف، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.
12. الآلوسي ، محمود بن عبدالله الحسني (ت:1427هـ)، (ط1، 1415هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت.
13. أبو السعادات، ضياء الدين هبة الله بن علي بن حمزة، المعروف بابن الشجري،الأمالي الشجرية، (ت: 542هـ)، (ط1، 1413هـ ـ1991م) تح: د محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة.
14. البيضاوي، ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي(ت: 685هـ)، (ط1، 1418هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
15. الدرويش، محيي الدين بن أحمد مصطفى،(ط4، 1415هـ)، إعراب القرآن وبيانه، دار الإرشاد للشئون الجامعية –

حمص – سورية، (دار اليمامة، دار ابن كثير – دمشق – بيروت).

16. الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (ت: 794هـ)، (ط1، 1376هـ – 1957) البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

17. الزمخشري، محمود بن عمر بن أحمد (ت:538 هـ)، (ط3، 1407هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل دار الكتاب العربي – بيروت.

18. السامرائي، د فاضل صالح، (ط3، 1403هـ ـ1983م)، الفعل: زمانه وأبنيته ، مؤسسة الرسالة، بيروت،).

19. سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، (ت: 180هـ)، (ط3، 1408هـ – 1988م)، الكتاب تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.

20. شهاب الدين (د.ت) أحمد بن محمد الحنفي، حاشية الشهاب لتفسير البيضاوي، المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي

21. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله (ت: 1250هـ)، (ط1 ،1413هـ) دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت.

22. الطبري، محمد بن جرير، (ت: 310هـ)، (ط1، 1420هـ – 2000م) جامع البيان في تأويل القرآن، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة.

23. فخر الدين الرازي، عمر بن الحسن بن الحسين التيمي (ت: 606هـ)، (ط2، 1420هـ)، مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

24. النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت لبنان، ط2، 1986م.

25. الواحدي (ت:468هـ)، (ط1، 1415هـ – 1994م) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، أحمد محمد صيرة، أحمد عبد الغني الجمل، عبد الرحمن عويس، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.